المقرى مؤرخ الأندلس

حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٢ —

يقسم المقرى كتابه عن الأندلس إلى قسمين كبيرين ، يخصص أولهما للتعريف بالأندلس وتاريخها وآدابها ، والثانى للتعريف بابن الخطيب . ويشتمل كل قسم على ثمانية أبواب ، فيشمل الأول وصف الأندلس وجغرافيتها وفتحها على يد موسى وطارق ، وتاريخها فى عهد الولاة وبنى أمية وملوك الطوائف ، ووصف قرطبة ومعاهدها وضواحيها ومتنزهاتها ، ثم التعريف بالراحلين من الأندلس إلى الشرق ، والوافدين من الشرق على الأندلس . واستعراض آداب الأندلس ومنثورها ومنظومها ، ثم تاريخ الصراع الأخير بين الأندلس واسبانيا النصرانية وسقوطها الأخير فى يد النصارى . ويشمل القسم الثانى على نشأة ابن الخطيب ، وتدرجه فى طريق المجد وما لقى من الأحداث والمحن حتى وفاته ، وذكر أساتذته وأشياخه ، وما وجه اليه من الرسائل الملوكية ومن أكابر عصره ، ومقتطفات كبيرة من كتبه ورسائله ونثره ونظمه ، وذكر مؤلفاته وذكر بعض تلامذته الآخذين عنه ، ثم ذكر أولاده ووصيته .

ويشغل الكتاب كله أربعة مجلدات ضخمة ، كل قسم مجلدين ؛ فهو كما قدمنا موسوعة صحيحة سواء من ناحية حجمه أو محتوياته ؛ ذلك أن المقرى يحشد فى كل باب من هذه الأبواب العامة كثيراً من المعلومات والشذور والوثائق والرسائل والمختارات ؛ ويكاد كل منها يضارع كتاباً بأسره . ويجرى المقرى على قاعدة الاستطراد فينتقل بقارئه من موقف إلى موقف ، ومن شذرة أو رسالة أو قصيدة إلى أخرى حسبما تسوقه شجون الكلام والرواية . وقد ترد خلال حديثه أهم المعلومات والوثائق حيث لا ينتظر ورودها . وفى كثير من الأحيان ينقل المقرى الينا رسالة بأسرها أو كتاباً بأسره ؛ ولا يعنى المقرى بالتنظيم والتناسق ، وإنما يعرض مادة كتابه مبعثرة حسب التقسيم البسيط الشامل الذى ذكرناه .

ذلك أن المقرى لم يكن مؤرخاً بالمعنى الحقيق ، بل كان أديباً فقط ؛ وهو لا يزعم أنه مؤرخ أو محقق أو ناقد ، وإنما يقول لنا إنه ناقل فقط يورد من المعلومات والشذور ما اتفق ولا يعنى بتمحيصها أو تحقيقها [١] . ولكنا مع ذلك نشعر أن للمقرى فى كتابه شخصية قوية ، ونشعر بالأخص بأن حرارة خاصة تنبث من هذه الصحف الأندلسية ؛ ذلك أن المقرى يكتب عن الأندلس بروح يضطرم اعجاباً وأسى ؛ ولا غرو فقد كانت ذكريات الأندلس ما تزال فى عصره حية مضطرمة فى المغرب ، ولم يكن قد مضى أكثر من قرن على سقوط الأندلس النهائى فى يد اسبانيا النصرانية ؛ بل لقد وقع فى عصر المقرى بالذات حادث أذكى هذه الذكريات الشجية ، هو نفى « الموريسكيين » أو العرب المتنصرين من اسبانيا (فى سنة ١٦٠٩م — ١٠١٧هـ) والعرب المتنصرون هم بقية الشعب الأندلسى المجيد أرغموا على التنصر بعد سقوط الأندلس ؛ وقد وفدت منهم عند النفى عشرات الألوف إلى ثغور المغرب وقواعده ، وعاد معظمهم إلى الاسلام . وشهد المقرى هذه الخاتمة المؤسية ، وهو يومئذ بفاس ، وشهد ألوفاً من أولئك العرب المتنصرين ، وتركت هذه الذكريات والمشاهد المؤلمة فى نفسه أعمق الآثار [٢] ، وأذكت فى نفسه بلا ريب شغف التنقيب عن تاريخ الأندلس وماضيها المجيد وأيامها الزاهرة .

وقد وضع المقرى كتابه عن الأندلس فى القاهرة كما قدمنا ، ولكنه كان قد جمع معظم مواده فى المغرب . ويقول لنا المقرى إنه عنى منذ شبابه بالتنقيب فى تاريخ الأندلس وأحوالها وآدابها ، وإنه استخرج من مراجعه أغزر المواد وأنفسها ، ولكنه تركها بالمغرب ، ولم يستصحب معه حين الرحلة سوى القليل منها ، ومنها أوراق سودها ، وأشياء علقت بذاكرته . ويقول لنا أيضا : « إنه لو حضره ما خلفه مما جمع فى ذلك الغرض وألف ، لقرت به عيون ، وسرت ألباب ... » [٣] ؛ وإذا كان المقرى

(١) راجع إشارة المقرى إلى ذلك فى نفح الطيب ج ١ ص ١٣٦
(٢) راجع حديث المقرى عن هذا الحادث ج ٢ ص ٦١٧
(٣) نفح الطيب — ١ ص ٥٧

يعنى بهذا القليل من مادته ما ضمنه كتابه ، فلا ريب أن ما جمعه من المواد الأصلية كان غزيراً جداً ، ذلك لأن هذا القليل الذى ضمنه « نفح الطيب » هو فى ذاته مجموعة حافلة من المواد والوثائق المختلفة التى تلقى أعظم الضياء على تاريخ الأندلس وآدابها

وقد قلنا إن المقرى ناقل ومصنف ؛ ولكن له فى هذا النقل والتصنيف فضلاً لا يقدر ؛ فقد نقل إلينا عشرات الشذور والوثائق من مصادر أندلسية جليلة لا وجود لها اليوم ، بل نقل إلينا رسائل وكتباً برمتها بددت ولم نظفر بأصولها حتى اليوم ؛ ولولا عناية المقرى بنقلها وتصنيفها لحرمنا الى الأبد من هذه المراجع والوثائق الهامة . ولقد كان المغرب الأقصى حتى عصر المقرى أعظم مستودع لتراث الأندلس الأدبى ؛ وكانت مكاتب المغرب ، ولا سيما مكتبة الأشراف السعديين ، عامرة إلى ذلك العهد بكثير من الآثار الأندلسية النادرة ؛ وكان لمولاى زيدان سلطان فاس لعهد المقرى شغف خاص بجمع الكتب النادرة ؛ وقد انتفع المقرى بهذا التراث الحافل ، واغترف منه وقيد ما شاء ؛ ولكن الظاهر أيضاً أن هذا التراث قد بدد معظمه بعدئذ بقليل ؛ ذلك أنه قد حدث فى أواخر عهد مولاى زيدان حادث يخيل الينا أنه ذو علاقة مباشرة بضياع الآثار الأندلسية ؛ وذلك أن السفن الأسبانية أسرت مركباً مغربية مشحونة بآلاف من الكتب والتحف المملوكة لمولاى زيدان ، وحملت شحنتها إلى اسبانيا ؛ ويشير السلاوى فى تاريخه الى ذلك الحادث نقلاً عن الرواية الأسبانية ، فيقول : «وقال منويل إن قراصين الأصبنيول غنمت فى بعض الأيام مركباً للسلطان زيدان فيه آثار نفيسة من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغير ذلك»[1] وتقول الرواية الأسبانية إن وقوع هذا الحادث كان فى عهد فيليب الثالث ملك اسبانيا (١٥٩٨ — ١٦٢١ م) ؛ والظاهر أنه وقع نحو سنة ١٠٣٠ هـ (١٦٢٠م) حينما اشتد اضطراب العلائق بين اسبانيا والمملكة الشريفية ؛ وعلى أى حال فقد حملت كتب مولاى زيدان ، وهى بلا ريب أنفس مجموعة من نوعها ، إلى اسبانيا ، وأودعت فى دير الأسكوريال إلى جانب بقية التراث الأندلسى التى كانت مودعة فيه منذ سقوط غرناطة ، فاجتمع بذلك فى الاسكوريال نحو عشرة آلاف مخطوط عربى معظمها من تراث الأندلس ؛ ولكن محنة نزلت بهذا التراث النفيس ، فقد شبت النار فى الأسكوريال سنة ١٦٧١ ، والتهمت معظم الكتب العربية ، ولم يبق منها سوى ألفين ؛ وبقيت ضمن هذه المجموعات عدة من كتب مولاى زيدان لا تزال إلى يومنا فى الأسكوريال

وهذا فيما نعتقد هو السر فى اختفاء الآثار الأندلسية التى كانت تحفل بها قواعد المغرب ومكاتبه فى عصر المقرى ؛ وقد جمع المقرى مادته ودون مذكراته أثناء مقامه بفاس بين سنتى ١٠١٣ — ١٠٢٧ هـ (١٦٠٣ — ١٦١٦ م) ، وكان بذلك من أواخر أولئك الذين استطاعوا من أدباء جيله أن يظفروا بمراجعة هذا التراث والانتفاع به . ومما يدل على أن المقرى انتفع بنوع خاص بالمراجعة فى مكتبة مولاى زيدان التى فقدت ، أنه ينقل عن نسخة وحيدة من مسند ابن مرزوق المغربى كانت ضمن هذه المجموعة ولا تزال فى الأسكوريال[2] ، وكذلك يستقى معظم روايته عن سقوط غرناطة وعن العرب المتنصرين من كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » ومنه نسخة وحيدة أيضاً فى الأسكوريال[3]

ولا يتسع المقام هنا لاستعراض المصادر العديدة التى نقل عنها المقرى ، ما ضاع منها ، وما يزال قائماً ؛ ويكفى أن نقول إن طائفة كبيرة من المصادر الأندلسية الجليلة التى ينقل عنها قد اختفت ودرست معالمها ؛ ومن ذلك تاريخ ابن حيان الكبير مؤرخ الأندلس ، وتواريخ الحميدى ، والحجارى ، وابن بشكوال والرازى وغيرهم ، وكتب عديدة لابن الخطيب ، وقد بقيت من تاريخ ابن حيان قطعة صغيرة نشرت أخيراً ؛ ووجدت منذ أعوام بالمغرب نسخة كاملة من كتاب الذخيرة لابن بسام ، وفيما عدا ذلك لم يظفر البحث الحديث بشىء من تلك المصادر الجليلة التى ينقل إلينا المقرى عنها بسخاء يزيد اليوم فى فضله وفى أهمية كتابه

* * *

(١) الاستقصاء فى أخبار دول المغرب الأقصى ج ٣ ص ١٢٨

(١) لين بروفنسال فى دائرة المعارف الاسلامية (مقال المقرى)

(٢) نشر هذا الكتاب — وهو لمؤلف مجهول — فى أواخر القرن الماضى بعناية أحد المستشرقين

ويتصل بمجهود المقرى عن الأندلس كتابه « أزهار الرياض ، فى أخبار القاضى عياض » ؛ وهو سـفر كبير يخصصه لترجمة الفقيه الـكبير عياض السبتى ، واسـتعراض آثاره ، على نحو ما يكتب عن ابن الخطيب فى نفح الطيب ؛ بيد أنه يستطرد كعادته ، ويذهب فى الحديث شجوناً شتى ، وينقل إلينا بعض الأقوال والوثائق المتعلقة بسـقوط غرناطة وتاريخ الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، ولهذه الوثائق على قلتها وإيجازها أهمية خاصة ، لأنها كل ما انتهى إلينا من الرواية الاسـلامية فى هذا الموطن ، وهى أقوال معاصرين للمأساة شهدوا بعض حوادثها بأعينهم أو سمعوا أخبارها فى الضـفة الأخرى من الأندلسيين الوافدين على المغرب ؛ منها رسالة لمجهول يظهر أنه من معاصرى سقوط غرناطة يصف فيها نقض ملك قشتالة لعهوده ازاء المسلمين ، وما اتخـذه النصارى من وسائل الارغام والقهر لاكراه المسلمين على التنصر ، وما فرضته محاكم التحقيق (التفتيش) على المخالفين من العقوبات المروعة ؛ ومنها قصيدة طويلة لابن العباس أحمد الدقون أحـد علماء المغرب فى القرن التاسع الهجرى عنوانها « الموعظة الغراء بأخـذ الحمراء » يرثى فيها الأندلس ؛ ومنها أيضاً وثيقة ذات أهمية تاريخية خاصة ، وهى رسالة كتبها أندلسى متنصر عقب سـقوط غرناطة ، إلى بايزيد الثانى سلطان الترك يستغيث به ويستصرخه لنصرة إخوانه العرب المتنصرين ، ويصف له فى شعر قوى التعبير على الرغم من ركاكته ، ما يصيب العرب المتنصرين من أهوال ديوان التحقيق وروائع مطاردته وعقوباته ؛ وهذه وغيرها من الوثائق والنـذور التى ينقلها إلينا المقرى فى أزهار الرياض قد ضاعت أصولها ، ولولا عناية المقرى بنقلها لما ظفرنا بها

وهذان الأثران الـكبيران هما أهم ما فى تراث المقرى . بيد أن للمقرى ثبتاً آخر من الـكتب والرسائل الأدبية والدينية انتهى إلينا معظمه ؛ ومن ذلك : « إضاءة الدجنة فى عقائد أهل السنة » ، « فتح المتعال فى مدح الفعال المتشرفة بخير الأنام » . « حسن الثنا فى العفو عمن جنى » . « قطف المهتصر فى أخبار المختصر » « عرف النشق فى أخبار دمشق » . « روض الآس العاطر الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » . « الدر الثمين فى أسماء الهادى الأمين » ، وغيرها [1]

وقد كتب المقرى معظم كتبه فى القاهرة ؛ والمرجح أنها كتبت جميعاً أو كتب معظمها قبل نفح الطيب ، لأن المقرى لم يعش بعد كتابته طويلاً كما رأينا ؛ وكان المقرى يحتل فى المجتمع القاهرى الأدبى مكانة رفيعـة ؛ ويكفى أن نذكر هنا ما وصفه به المحبى الذى ترجمه بعد ذلك بنحو نصف قرن : « حافظ المغرب . لم ير نظيره فى جودة القريحة ، وصفاء الذهن وقوة البديهـة ؛ وكان غاية باهرة فى علم الـكلام والتفسير والحـديث ، ومعجزاً باهراً فى الأدب والمحاضرات » [2] ، والواقع أن المقرى يكتب بأسلوب قوى ، وبيان ساحر ، يشهدان له بغزارة البلاغة فى عصر كان الأدب العربى يجوز فيه مرحلة انحطاط قوى

* * *

وقد أخرجت مطبعة بولاق كتاب « نفح الطيب » كاملاً فى ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢) فى أربعة أجزاء كبيرة ؛ وكان جماعة من المستشرقين على رأسهم العلامة دوزى قد عملت قبل ذلك لاخراج القسم الأول من كتاب نفح الطيب وهو الخاص بالأندلس بين سنتى ١٨٥٥ و ١٨٦١ تحت عنوان Analectes sur L'histoire et La littérature des Arabes d'Espagne ، ومهد لهذه الطبعـة المستشرق دوجا بترجمة للمقرى ؛ وطبع نفح الطيب بالقاهرة بعد ذلك أكثر من مرة فى أربعة أجزاء أيضاً على نسق طبعة بولاق ونشر فى تونس الجزء الأول من أزهار الرياض فى سنة ١٩٢٢ ؛ ونشرت بعض آثار المقرى الأدبية ، مثل كتاب « حسن الثنا فى العفو عمن جنى » (القاهرة) ، وظهرت فى سنة ١٨٤٠ فى لندن ترجمة انـكليزية ملخصة للقسم الأول من نفح الطيب بقلم المستشرق الاسـبانى الدون جاينجوس تحت عنوان : « تاريخ الدول الاسلامية فى اسبانيا » The History of the Mohamedan Dynasteis in Spain مقروناً بتعليقات وفهارس قيمة ، وترجم للمقرى غير من ذكرناهم أكثر من مستشرق مثـل فستنفلد فى كتابه « مؤرخو العرب » (بالالمـانية) وبروكلمـان فى « تاريخ الأدب العربى » (بالألمـانية أيضاً) والأستاذ ليفى بروفنسال فى كتابه « مؤرخو الأشراف » (بالفرنسية) ، وآخرون غير هؤلاء

(تم البحث — النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

(١) راجع خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٢ وما بعدها ، وسلافة العصر ص ٥٩١ (٢) المحبى فى خلاصة الأثر